حرب النجوم
استراتيجية التوتر الدائم

صخر حبش (أبو نزار)

حرب النجوم

استراتيجية التوتر الدائم

تم في السادس من ايار 1986 اعلان مشاركة الكيان الصهيوني في برنامج الرئيس ريغان المسمى مبادرة الدفاع الاستراتيجي والمعروف بحرب النجوم. لقد جاء اعلان اشتراك الكيان الصهيوني بعد مرور ثلاث سنوات على اعلان المبادرة في 23 آذار 1983 وكانت الولايات المتحدة قد تقدمت بعرض على 17 دولة للاشتراك في هذا البرنامج. ونظرا للضجة الكبرى التي اثيرت حوله في الولايات المتحدة نفسها فقد كان التجاوب مع العرض الامريكي فاترا. فقبل اعلان مشاركة الكيان الصهيوني، وحتى الآن، لم تعلن المشاركة غير بريطانيا والمانيا الغربية "ولا يزال الموضوع ساخنا على المستويات الاعلامية والسياسية والاقتصادية في الولايات المتحدة ويشكل احد المواضيع الحية على جدول اعمال الكونغرس والبنتاجون ووزارة الخارجية وهوليود رامبو الجديد. كما كان الموضوع يقفز على رأس جدول الاعمال في لقاءات القمة السوفيتية الامريكية في جنيف وريكيافيك وكذلك في كافة مؤتمرات السلام والتضامن ومحاربة الجوع وحقوق الانسان. لقد كان الخطر النووي والرعب منه ومحاولة تفاديه قضية خاصة بالسياسيين الكبار والعلماء والاخصائيين، فاصبح الآن بعد اعلان المبادرة قضية كل الناس واصبح الحديث عنه مقترنا بالحديث عن سوبرمان ورامبو الامريكي وكيف يمكن ان ينتهي العالم كله مرة واحدة... وفي لحظات.

ولم يتورع الرئيس ريغان في مباحثاته مع الامين العام غورباتشيف من الحديث عن امكانية غزو الارض من اهالي الكواكب الاخرى معتبرا ان هذا من شأنه ان يفرض نوعا من التعاون الاستراتيجي بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي في مواجهة الغزو الخارجي. ويعتبر الرئيس ريغان ان مستقبل الانسان في الفضاء. وهو يطمح ان يقترن هذا المستقبل باسمه هو. وفي هذا المجال روجت وكالة رويتر لابحاث يقوم بها المؤلف السويسري ايرن فون دانيكن تعبر عن اعتقاده بأن "ماضي الانسان كان ايضا مرتبطا بالفضاء منذ آلاف السنين، وهو يستشهد بنصوص قديمة باللغة السنسكريتية تقول (ان محطات وسفنا فضائية عملاقة تطير بين النجوم. وان معارك في السماء وقعت بين غرباء) وتقابل اقوال دانيكن بالاستخفاف من قبل اكثر العلماء ولكنه ما يزال يواصل بحثه عن آثار غزوات فضائية للارض استعملت فيها اشعة تشبه اشعة الليزر. وسينشر كتابا جديدا بعد ان تتوافر له الادلة البرية والبحرية عن صحة نظريته" (1).

واذا كان الرئيس ريغان يؤمن بالتعاون مع الاتحاد السوفيتي لحماية البشرية من غزو فضاء خارجي، فانه يعتبر ان معركته الحالية هي حماية ما يسميه العالم الحر من الاتحاد السوفيتي وما يحمله النظام الاشتراكي من خطر العدالة والمساواة التي تهدد استغلال الامبريالية وهيمنتها.

هذا المفهوم الامبريالي الذي يحكم تفكير الرئيس ريغان كان ولا يزال يحكم كل افكار الاستعماريين والامبرياليين.. وهو ينبع من عقدة التفوق العنصري التي تعتبر ان لشعب ما رسالة حضارية. وان عالم الاسياد وعالم العبيد هما حقيقة الهية لا يجوز التغاضي عنها. ومن هذه الافكار انتزعت الصهيونية ملامح عنصريتها وأصبحت تشكل الافراز الامبريالي الاكثر عنصرية والاكثر خطورة على الجنس البشري تماما كما استثمرتها النازية في محاولتها فرض سيطرتها على العالم.

والرئيس ريغان يرى ان حماية البشرية تبدأ اولا من حماية الولايات المتحدة من الخطر السوفيتي.. وهو لذلك يعلن:

"ان مبادرة الدفاع الاستراتيجي هي بوليصة تأمين امريكا بأن الاتحاد السوفيتي سيتقيد بالالتزامات التي اعطاها في ريكيافيك. ومبادرة الدفاع الاستراتيجي هي ضمانة امريكا الامنية فيما اذا تخلف السوفييت (مثلما فعلوا في غالب الاحيان في الماضي) عن التقيد بالتزاماتهم الجدية. ان مبادرة الدفاع الاستراتيجي هي ما جعل السوفييت يعودون الى مباحثات ضبط الاسلحة في جنيف وأيسلندة. ومبادرة الدفاع الاستراتيجي هي المفتاح إلى عالم خال من الاسلحة النووية (2).

والسؤال الذي يفرض نفسه على كل ذي لب.. وقلب ومسؤولية: هل المبادرة هي حقا المفتاح إلى عالم خال من الاسلحة النووية ؟

هل المبادرة هي حقا طريق البشرية إلى السلام الوطيد ؟

واذا كانت كذلك فلماذا يعارضها الاتحاد السوفييت بهذه الجدية وهو الذي يعتبر داعية السلام الاول في هذا العصر ؟..

لا بد ان هنالك اسبابا.. وهذا ما سنحاول استعراضه في هذا البحث الذي سينطلق من تحليل الاستراتيجية الامبريالية وتطورها وصولا إلى استراتيجية حرب النجوم، استراتيجية التوتر الدائم.

أولا: استراتيجية الحرب

ما ان وضعت الحرب العالمية الثانية اوزارها حتى بدأ العالم يعيد بناء ما لحقه من دمار على جبهتي الدول المنتصرة والمهزومة على حد سواء. دولة واحدة شاركت في الحرب ولم تسقط على ارضها أية قنبلة هي الولايات المتحدة الامريكية (ففي الوقت الذي تدمرت فيه صناعة البلدان الرأسمالية الاخرى ابان الحرب طورت الولايات المتحدة الامريكية جهازها الانتاجي بوتائر محمومة. وزودت صناعتها بأحدث الاجهزة بقيمة 25 مليار دولار) (3).

ولقد خرجت الولايات المتحدة من الحرب تحمل عقدة التفوق المطلق بما حصدته من مكاسب اقتصادية وعسكرية في وقت كان فيه حلفاؤها من الدول الرأسمالية يلهثون وراء قروض منها لترميم اقتصادهم ومتطلبات وجودهم. وقد بدأت سياسة الهيمنة المطلقة تتسلل إلى شرايين الحياة السياسية الامريكية وبدأ قانون السيطرة الامبريالي يشق طريقه ليحقق السيطرة على الاصدقاء والاعداء على حد سواء فحين كان الكونجرس يبحث موضوع قرض لبريطانيا قيمته 3 مليارات من الدولارات صرح النائب جون ماكورماك زعيم الاغلبية في مجلس النواب الامريكي بأنه على التصويت بشأن هذه المسألة (تتوقف قضية ما اذا كانت الولايات المتحدة الامريكية ستحتل مكانتها بمثابة الزعيم الفعال بين دول العالم ام لا) (4).

وبنفس المعنى اكد الرئيس ترومان اثر توليه منصب الرئاسة (ان النصر المحرز قد القى على الشعب الامريكي مسؤولية تتطلب المزيد من السيطرة العسكرية والاقتصادية والسياسية فقد سادت سياسة مواقع القوى والحرب الباردة والتحضير لحروب عدوانية جديدة.

عندما كان روبرت اوبنهايمر مدير مشروع مانهاتن الذي كلف 2191 مليون دولار يرقب انفجار اول قنبلة ذرية يوم 16 تموز سنة 1945 في الاماغورودو في صحراء نيومكسيكو كان يدرك جيدا خطورة التجربة. كانت القنبلة من البلوتونيوم وقد انفجرت بعصف تعادل قوته التدميرية (14 ألف طن من مادة ال (تي ان

تي. يومها اقتبس اوبنهايمر القول التالي من سرى كريشنا. الذات العليا (لقد اصبحت انا الموت بعينه ومدمر العوالم) (6).

بعد عشرين يوما فقط من هذه التجربة كان الموت والدمار يخيمان على هيروشيما وبعدها بثلاثة أيام على نجازاكي ماسحا معه ما سحقه من ارواح الضحايا كل ما تبقى من مبدأ ولسون لحقوق الانسان الذي اعلنه عام 1918 وخاصة ما جاء فيه حقول حق الشعوب في تقرير مصيرها. ونشأت نتيجة للشعور الامريكي بالتفوق الذري عقدة السيطرة على العالم وبدأ نهج الدبلوماسية الذرية للامبريالية الامريكية يشق طريقه. لقد صرح وزير خارجية الولايات المتحدة بيرنز وهو يبرر جريمة الامبريالية في قصف هيروشيما ونجازاكي بالقنابل الذرية (ان استخدام القنبلتين كان ضروريا ليس للحرب ضد اليابان بقدر ما هو ضروري لجعل روسيا اكثر تساهلا في اوروبا) (7). كما اعترف فاينبار بوش رئيس لجنة الابحاث الدفاعية الوطنية الامريكية ان احد اسباب استعجال التاريخ الذري في صيف 1945 كان "بدافع عدم ايجاد ضرورة للقيام بتقديم تنازلات لروسيا عند انتهاء الحرب) (8)، بل وأكثر من ذلك فإن العالم الفيزيائي الانجليزي البارز البروفيسور بليكيت اشار إلى ان (القاء القنبلتين الذريتين لم يكن عملا اخيرا في الحرب العالمية الثانية بقدر ما كان اول عملية كبيرة في الحرب الدبلوماسية الباردة ضد روسيا) (9).

وقد وصلت عقدة التفوق اوجها في لحظات الشعور بالتفرد بامتلاك ناصية السيطرة على مفتاح العلم والتكنولوجيا وتقمص الشيطان الاسود روح العظمة وامتلاك العالم. وقد عبر عن هذا الشعور رئيس الاركان الاسبق للجيش الامريكي ماكسويل تيلر بقوله (ان القوة التدميرية المفزعة للقنابل الذرية ولدت وجهة نظر تؤكد ان قواتنا الجوية تمتلك الآن سلاحا حاسما سيتيح للولايات المتحدة من الآن فصاعدا فرض رقابة بوليسية على العالم وارغامه على تقبل نوع من (Pax Americana) العالم الامريكي (10).

بدأ التحضير لمشروع الهجوم النووي الامريكي الاول على الاتحاد السوفييتي في اواخر عام 1945 والذي استهدف ضرب عشرين مدينة سوفيتية بالقنابل الذرية. وتلا ذلك في العام 1946 اعداد اول خطة متكاملة للحرب ضد الاتحاد السوفيتي والمعروفة باسم (بنتشر) والتي بمقتضاها تبدأ الحرب ضد الاتحاد السوفيتي في صيف 1946 أو 1947 مع تنفيذ المشروع الاول للهجوم والقاضي بتدمير عشرين مدينة سوفيتية بالقنابل الذرية.

وفي العام 1948 وضعت خطة فليتوود التي تعتمد اساسا على الضربة النووية المفاجئة ضد سبعين مدينة سوفيتية تلقى عليها 133 قنبلة ذرية...

ومع بداية التجارب النووية للاتحاد السوفيتي ونجاحها في الرابع عشر من تموز عام 1949 والاعلان عنها رسميا في 25 سبتمبر 1949 ،اصدر مجلس الامن القومي الامريكي الامر رقم س. ت. ن. 68 (1950) الذي جاء فيه تحديدا "ان الخطر السوفيتي على امن الولايات المتحدة قد اشتد. وهو اقرب مما كان في السابق. ان الجمهورية بولاياتها ومواطنيها وهي في ذروة جبروتها عرضة لافظع خطر. ولا يدور الحديث عن حياة او موت هذه الجمهورية وحدها بل والحضارة بكاملها "وطالب الامر بسياسة" تحدث تبدلات جوهرية في طابع النظام السوفيتي واعدت القيادة الجوية الاستراتيجية خطة باسم (ترويان) تنص على القاء 300 قنبلة نووية على 100 مدينة سوفيتية (11).

وكان لا بد لاستراتيجية الحرب الامريكية ان تخوض سباق التسلح لفرض التفوق المطلق. وفي تشرين

اول عام 1949 دعا ترومان العلماء وعلى رأسهم اوبنهايمر لابتكار سلاح اكثر تطورا وفعالية من القنبلة الذرية. وعكف العلماء على دراسة الوضع ولكنهم في النهاية قدموا رأيهم حول خطورة الخوض في سباق التسلح والانتقال إلى مرحلة القنبلة الهيدروجينية. وجاء في تقرير الاكثرية الذي اعده خمسة علماء (اننا جميعا غير راغبين في رؤية الولايات المتحدة تبادر للاسراع في هذا التطور وفي تصميمنا على عدم السير نحو تطوير القنبلة العظمى فاننا نرى فرصة فريدة متاحة لاعطاء القدوة في فرض بعض القيود على شمولية الحرب. وبذلك نحد من مخاوف البشر وننعش فيهم الامان) (12) ولكن علماء آخرين استبد بهم الغضب وفي مقدمتهم العالم المجري الاصل ادوارد تيلر الذي كان يعمل في ابحاث القنبلة الذرية منذ عام 1942 كما شارك في ابحاث متقدمة في مركز القيادة بمشروع مانهاتن بغية التوصل إلى جهاز اكبر يقوم على اندماج الذرات وليس انشطارها. وكان تيلر يعتقد (انه لا يمكن للبشر ان يرتدعوا حقيقة ويفكروا في السير باعتدال الا اذا كبرت القنابل لدرجة انها اصبحت قادرة على ازالة كل شيء. وان معارضي القنبلة الهيدروجينية يشبهون النعام اذا ظنوا ان باستطاعتهم دعم السلام في العالم) (13) وترك ترومان الموضوع للتفكير ولكن ذلك لم يطل كثيرا فبعد شهرين انفجرت قضية تجسس علمية بطلها الالماني فوخس الذي هرب من المانيا النازية وعمل في المشاريع النووية البريطانية ثم الامريكية وتبين بعد ذلك انه يعمل مع الاتحاد السوفيتي. وفورا طلب ترومان من مجلس الامن القومي اعادة النظر في موضوع القنبلة العظمى، وبالرغم من معارضة العلماء فقد قرر وزير الدفاع جونسون ووزير الخارجية اتيشيون بتطوير القنبلة بالرغم من رأي ليلنثال رئيس لجنة الطاقة الذرية المعارض. واعلن الرئيس ترومان ذلك رسميا في 31/ يناير 1950 (ان مسؤولياتي كقائد اعلى للقوات المسلحة ان اعمل ما في وسعي لتصبح بلادي قادرة على الدفاع عن نفسها ضد اي عدوان. وبناء على ذلك فقد كلفت لجنة الطاقة الذرية بالاستمرار في عملها لانتاج كافة انواع الاسلحة بما في ذلك ما يسمى بالقنبلة الهيدروجينية او القنبلة العظمى (14) وكان على ترومان ان يصارح العلماء شخصيا ويقنعهم ان انتاج القنبلة الهيدروجينية (كان امرا ملحا جدا).

بدأ التطلع نحو الفضاء يغزو الفكر العسكري الامريكي مباشرة بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية. وقد كان للجنرالات الالمان الذين انتقلوا إلى امريكا تأثير واضح على البنتاجون وخاصة عندما اصبح الجنرال الالماني الذين انتقلوا إلى امريكا تأثير واضح على البنتاجون وخاصة عندما اصبح الجنرال الالماني ف. دورنبيرغر المدير السابق لبرنامج الصواريخ الهتلري مستشارا رسميا للبنتاجون لشؤون القوى الجوية :

وفي غمرة احلامه لتحقيق مشاريعه الهتلرية الخيالية...

(اقترح الجنرال الالماني ف. دورنبيرغر على البنتاجون اقامة منظومة من الاسلحة في الفضاء تجمع بين الاقمار الصناعية والاسلحة المحمولة على متنها والتي تدور حول الارض على ارتفاعات وزوايا مختلفة. يتم التحكم بحركاتها من الارض ويمكن ارسال الاقمار إلى المنطقة الجوية الكثيفة من الارض وتدمير الهدف المحدد له. وبهذا ولدت فكرة برنامج نابس الاقمار الصناعية القاذفة للاسلحة النووية) (15).

ودخلت في مطلع الخمسينات افكار دورنبيرغر بصورة اساسية في مشروع البحوث الجديدة لانتاج معترض الصواريخ البالستيكية المتسارع وهو المعروف باسم بامبي.

ولقد وصف الصحفي الامريكي ج. مانو في كتابه "السماء المسلحة" الجنرالات الحالمين المهووسين بغزو الفضاء واستعماره بقوله :

(هؤلاء الحالمون. كانوا يحلمون احلاما مليئة بالصور المليئة بالزخارف في فضاء يمتلكونه لانفسهم. ويحلقون فيه كالبواشق وينقضون فيه على اية حمامة وديعة تريد استغلال الفضاء الكوني لخير البشرية) (16).

وقد تم وضع هذا المشروع على الرف عندما قرر ماكنامارا وزير دفاع كينيدي بأنه مشروع غير صالح.. ويبدو ان احلام السيطرة الفضائية لم تغب طويلا عن اذهان رؤساء امريكا خاصة بعد اسقاط السوفييت لطائرة التجسس (يو 2) وقد عبر الرئيس جونسون عن تطلعاته نحو عالم تسيطر فيه امريكا بقوله:

(ان البريطانيين سادوا العالم بسيادتهم البحار، وسيطرنا نحن على العالم بعد الحرب العالمية الثانية بفضل تفوقنا في الجو. وسنسود بعد الآن بفضل سيادتنا في الفضاء) (17).

ولم يكن التطلع نحو سيادة الفضاء والسيطرة على العالم بعيدا عن المفهوم الاستغلالي وتحقيق قانون المصلحة الامبريالي الذي اخذ يتعرض للخطر نتيجة النهوض الوطني الشامل للشعوب وتحركها نحو التحرر من الاستعمار والسيطرة الاجنبية. ولم تقف السياسة الامريكية مكتوفة الايدي وهي تشاهد انطلاقة الشعوب وهي تدك حصون الاستعمار البالية في آسيا وافريقيا. فقامت بالفعل بمساندة الاستعمار الفرنسي في الفيتنام وبالرغم من النتائج المهينة التي لحقت بالسياسة الامبريالية في مواجهة حركة التحرر الوطني في جنوب شرق آسيا فإن واينبرغر وهو يروج لسياسة ريغان الفضائية لم يتورع من توجيه النقد اللاذع لقصور سياسيي الولايات المتحدة في الخمسينات عن فهم حقيقة قانون المصلحة الامبريالي فقد اكد في عرضه لموضوع استراتيجية الدفاع الامريكية قائلا:

(ان المصالح الامريكية ليست منقوشة على الصخر في اي مكان. ولا يجب ان ترضخ ابدا لاغراء تحديد اطار للمصالح الحيوية كما فعل دين اتشيسون في اوائل الخمسينات. حين اعلن بالفعل ان مناطق معينة تخرج عن اطارنا الاستراتيجي. لقد كان من شأن ذلك في الواقع وان لم تكن بشكل مقصود دعوة كوريا الشمالية بموافقة ستالين لغزو كوريا الجنوبية. ان التقديرات فيما يتعلق بمصالحنا الحيوية سوف تعتمد في بعض الاحيان عن ظروف الحالة المحددة والاتجاهات المحددة. كما سوف يعتمد على قيم متأصلة، ومصالحنا الحيوية لا يمكن ان تحدد الا عن طريقنا نحن وعن طريق تعرفنا للخطر وطبيعي ان مصالحنا تشمل المصالح الحيوية لحلفائنا) (18).

ولم يقف الاتحاد السوفيتي مكتوف الايدي امام سياسة الغطرسة والهيمنة الامبريالية فحدد موقفا مبدئيا من حركات التحرر في العالم وضرورة دعمها كما وقف بحزم ضد سياسة الاحلاف العسكرية التي بدأت امريكا تتفنن في انشائها، وكان حلفاء امريكا من الدول الاستعمارية القديمة تدرج في طريق العجز وبدأت سياسة ملء الفراغ تلعب دورها خاصة بعد ان تساقطت انياب بريطانيا العجوز وفرنسا الهرمة بعد العدوان الثلاثي على مصر. وفي نفس الوقت اعلن الاتحاد السوفيتي على لسان رئيس الوزراء بولجانين بقوله (ماذا سيكون موقف بريطانيا لو ان دولا اقوى هاجمتها بكافة انواع الاسلحة الحديثة ومنها الاسلحة الصاروخية؟ من الممكن ان تتطور الحرب في مصر إلى حرب عالمية ثالثة... وقد عقدنا العزم على استخدام القوة لسحق المعتدين واعادة السلام إلى ربوع الشرق) (19).

كان للنجاحات الكبيرة التي حققها الاتحاد السوفيتي في مجالات العلم والتكنولوجيا دورها الحاسم في وضع حد لاستراتيجية الحرب التي اعتمدتها الامبريالية الامريكية في مرحلة التفرد النووي والتي

كانت تترجم على شكل سياسة الدبلوماسية الذرية وحافة الهاوية والسياسة من موقع القوة.. وقد انطوت صفحة استراتيجية الحرب على اساس التفوق المطلق في 26 آب 1957 حين نجحت التجارب الناجحة السوفيتية للصواريخ البالستيكية العابرة للقارات مصحوبة بسلسلة من التجارب الناجحة لتطوير الاسلحة الذرية والاسلحة النووية الحرارية. وازداد اندحار استراتيجية الحرب بنجاح تجربة اطلاق اول صاروخ في تاريخ البشرية يحمل إلى الفضاء الكوني اول قمر صناعي في العالم وذلك في أكتوبر 1957 كان هذا هو التطبيق العملي الاول لكل الافكار الخيالية عن غزو الفضاء. كانت الولايات المتحدة تتمتع بميزة خاصة تدعم استراتيجية الحرب وهي بعد الاراضي الامريكية عن ساحة الحرب وضمان امنها العسكري. في حين تمتلك قواعد لها في آسيا واوروبا قادرة على الانطلاق منها لالحاق الضربات بالاتحاد السوفيتي. ومع ظهور الصواريخ البالستكية العابرة للقارات ابتدأت صفحة جديدة فرضت على الولايات المتحدة اعتماد استراتيجية تقوم على اساس توازن الرعب او استراتيجية الردع المتبادل.

ثانيا: استراتيجية الردع

اعتمدت الولايات المتحدة استراتيجية الردع في تعاملها مع الاتحاد السوفيتي عندما اصبحت على يقين ان مرحلة التكافؤ النووي وطول الذراع السوفيتية المتمثلة بالصواريخ البالستيكية عابرة القارات تمسح من الاذهان استراتيجية الحرب التي سيطرت على العقل الامريكي خلال مرحلة التفوق النووي المطلق. او مرحلة احتكاره التام. واستراتيجية الردع هي ببساطة العلم على درء الحرب بالمحافظة على القوات والاسلحة في حالة تأهب نوعي وكمي قادر على اقناع الخصم ان تكلفة اي هجوم من طرفه ستفوق اية مكاسب يطمح إلى تحقيقها من خلال الهجوم. وان قانون العين بالعين يكون فعالا حين تكون الاصابع جاهزة متأهبة لدى الطرفين. وبدأت افكار الترس الدفاعي تسيطر على هاجس الردع ولم يعد التفكير بالقدرة الهجومية وحدها كافيا لتحقيق الردع المستقر. واصبحت القدرة الدفاعية مطلبا اساسيا لتحقيق الاستقرار. واصبح هاجس كل رئيس امريكي بناء جدار للولايات المتحدة التي لم تسقط عليها خلال الحرب العالمية الثانية اية قذيفة، واصبحت مع نهاية الخمسينات في متناول الصواريخ عابرة القارات. وقد اكد روين مدير ادارة البحوث العالمية والتكنولوجية في البنتاجون سابقا اهتمام المرؤساء الامريكيين بالدفاع المطلق حيث قال:

(ان جميع الرؤساء الامريكيين بدءا من ايزنهاور وحتى نكسون، وضعوا نصب اعينهم هدفا رئيسيا هو اقامة دفاع مطلق. ولكنهم جميعا في النهاية وعوا ان اقامة نظام دفاعي جديد ليس الا بدء دورة جديدة من دورات اعباء تسليحية جديدة)) (20).

ولقد انقسم مفهوم استراتيجية الردع إلى منهجين اساسيين يترابطان او ينفصلان حسب النظرة إلى توقع اين تكون الضربة الاولى للخصم. هل ستستهدف المدن والسكان كما حصل في ضربة هيروشيما ونجازاكي. انها بذلك ضربة في الجسم الطري.. اي ضربة في العين ويكون منهج الرد عليها العين بالعين زائد.. والبادئ اظلم. ام تكون الضربة موجهة إلى القواعد العسكرية والمنشآت الهجومية للخصم.. اي ضربة في الفك.. ويتطلب الرد عليها استخدام السن بالسن زائد والبادئ اظلم. وهنا بدأت مقولة ارسطو تدرس بعناية حيث يقول. في الفصل 11 من كتاب السياسة السابع (شعب بلا اسوار.. شعب بلا خيار..) وكان لا بد من التحضير للترس الواقي للعين من مخرز الخصم.. او للسن من هراوته الفتاكة.. وبدأت الصواريخ المضادة للقذائف البالستيكية العابرة للقارات بكل ما تقتضيه تكنولوجيا معقدة وتكاليف باهظة تأخذ طريقها إلى مرابضها متحفزة وجاهزة لتحطيم ادوات الهجوم قبل وصولها الهدف.. ولقد كانت التجربة الدفاعية المكتسبة من الحرب العالمية الثانية على جبهة بريطانيا العظمى أحد المؤشرات إلى اهمية

الصواريخ المضادة للصواريخ. فحين كانت طائرات بريطانيا القاذفة للقنابل ترد على ضربات المانيا بالقصف المضاد. كانت الخسائر المادية والمعنوية التي تلحق ببريطانيا باهظة ومكلفة. وحين حول تشيرشل عودا من الطائرات لتقوم بدور الاعتراض للطائرات الالمانية المهاجمة كانت معارك الجو تأخذ دورها وتنتهي بعيدا عن اي اثراء خسارة تصيب بريطانيا وسكانها. وهكذا وعلى نفس المبدأ الذي اصبحت الطائرة قاذفة القنابل يمن اعتراضها وتدميرها وهي في طريقها إلى الهدف، اصبح الصاروخ عابر القارات وما يحمله من رؤوس نووية قابل للتعرض والمواجهة والتدمير وهو في طريقه إلى الهدف. بل واكثر من ذلك وحتى وهو في مربضه اذا امكن تحديد مكانه بدقة واستخدم لذلك الصاروخ المتميز بالاصابة الدقيقة. وقد بدأ روبرت مكنامارا سياسته الاستراتيجية على اساس منهج السن بالسن. وقد اعلن في بداية عهده كوزير دفاع للرئيس كيندي عن هذا المنهج بقوله.

"لقد توصلت الولايات المتحدة إلى انه في المدى المنظور يجب الاقتراب من الاستراتيجية العسكرية الاساسية في حرب عامة محتملة بنفس الطريقة التي تتم فيها العمليات العسكرية التقليدية بمعنى ان الاهداف العسكرية في حالة الحروب النووية يجب ان تكون تدمير القوات العسكرية للعدو وليس سكانه المدنيين" (21).

وحيث ان المعركة لا تدور وتخطط من طرف واحد فان مكنامارا وجد نفسه يتخذ موقفا مغايرا عندما نصبت الصواريخ السوفيتية عن كوبا. إلى جانب حقيقة اخرى وهي انه (عندما اصبح من الواضح ان الاتحاد السوفيتي سوف يضع صواريخه البالستيكية الجديدة في صوامع مضادة للانفجار واجهت الولايات المتحدة قرار: هل نستهدفهم؟ كانت اجابة بنتاجون مكنمارا- لا.. وقد وضح فيما بعد ان امننا يعتمد على عزمنا على تدمير العدو كأمة قابلة للحياة في القرن العشرين وليس على أية قدرة للحد جزئيا من خسارتنا" (22).

ولهذا كانت استعداداته خلال ازمة الصواريخ الكوبية تنتهج سياسة الردع الشامل فحسبما جاء في قول احد المؤرخين الامريكيين (لم تقتصر الحكومة الامريكية في اعلام الروس ان 144 صاروخ بولاريس و 103 صواريخ اطلس و 105 صواريخ ثور وجوبيتر و 54 صاروخ تيتان كانت جاهزة لتحويل الاتحاد السوفيتي إلى كومة من النفايات المشعة خلال ثلاثين دقيقة يضاف إلى ذلك وجود 600 صاروخ متوسط المدى عابر للقارات و 250 صاروخ اخرى متوسط المدى و 1600 قاذفة بعيدة المدى و 37 حاملة طائرات لديها جميعا قوة نيران تعادل 3-4 أضعاف جميع قوة النيران التي يمكن للسوفيات وضعها في الجو) (23) كان واضحا ان الردع يستهدف الاتحاد السوفيتي ولكن الهجوم كان يستهدف كوبا التي قرر كيندي غزوها الشامل يوم الاثنين 29 تشرين الاول 1962 وجاء الرد السوفيتي (من اجل الاسراع في تصفية الصراع الخطر وخدمة قضية السلام... وتهدئة الشعب الامريكي فقد صدرت الا وامر لتفكيك الا سلحة التي يصفونها بأنها هجومية وتعبئتها واعادتها للاتحاد السوفيتي) (24).

ومنذ ذلك الحين اعتبر مكنامارا ان الدفاع عن المدن الامريكية ضد اي هجوم سوفيتي سيكون مجرد اهدار لموارد امريكا الاقتصادية بدون جدوى. وان تجنب مثل هذه الحرب يتم من خلال سياسة التدمير المؤكد المتبادل. وانطلاقا من وجهة النظر هذه رفض القادة الامريكيون خطط الحماية ضد الصواريخ البالستيكية ووقعوا مع الاتحاد السوفيتي اتفاقية الصواريخ المضادة للصواريخ البالستيكية عام 1972 والتي تسمح لكل من امريكا والاتحاد السوفيتي بتركيز الصواريخ المضادة في موقع واحد محدد لكل دولة. وفي الوقت الذي ركزت فيه الولايات المتحدة صواريخها المضادة في موقع واحد محدد لكل دولة. وفي الوقت الذي ركزت فيه الولايات المتحدة صواريخها المضادة للصواريخ لحماية مجمع الصواريخ عابرة

القارات في جراند فورك في شمال داكوتا قام الاتحاد السوفيتي بتركيز صواريخه المضادة للصواريخ لحماية موسكو. وقد نصت الاتفاقيات على انه محظور تطوير او اجراء التجارب او تركيز الصواريخ المضادة في البحر او الجو او الفضاء الخارجي او الارض.

وكان النقيض لسياسة التدمير المتبادل هو البقاء المتبادل. ونزع السلاح وتفادي خطر الحرب والغاء الترسانات الهائلة من الاسلحة الذرية والهيدروجينية. ولم يكن موضوع النزع الكامل والشامل للسلاح قضية سهلة في ظل استراتيجية الردع وسياسة التدمير المؤكد المتبادل.. وعدم ثقة المتبادلة ايضا بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي.. ولتعزيز هذه الثقة بدأت المؤتمرات تعقد تحت شعارات مختلفة. (تخفيض الميزانيات العسكرية بنسبة محددة)، تخفيف انتاج الاسلحة النووية).. حظر انتشار الاسلحة النووية.. (منع استخدام الأسلحة النووية).. (اقامة مناطق خالية من الاسلحة النووية). (منع التجارب النووية في الجو والفضاء وتحت الماء). (منع التجارب النووية تحت الارض)، (النزع الجزئي للاسلحة النووية. وهكذا في الوقت الذي كانت فيه المؤتمرات تنعقد والمعاهدات توقع. كانت الشعوب المستعمَرة تكافح للخلاص من الاستعمار ولتحقيق استقلالها وحريتها. وكان حق تقرير المصير يضيف عاما بعد عام المزيد من الدول المستقلة إلى حظيرة الامم المتحدة، وإلى مجموعة دول عدم الانحياز. كما بدأت اوروبا تحاول جهدها للخلاص من ربقة الهيمنة الامبريالية الامريكية، وبدأ الانتعاش الاقتصادي يشق طريقه نحو الاتحاد السوفيتي والمنظومة الاشتراكية. وبدا واضحا ان الردع المستقر يوجه الطاقات جميعا ضد مصالح الولايات المتحدة سواء في العالم الثالث الباحث عن الحرية والاستقلال والتقدم والتخلص من الاستغلال والتبعية. او المعالم الاوروبي الغربي والياباني الذي بدأت مصالحه تتعارض مع مصالح امريكا. ناهيك عن الوضع في البلدان الاشتراكية وفي مقدمتها الاتحاد السوفيتي وما حققته من استقرار عسكري واقتصادي مقرونا بالدعوة إلى السلام. وإلى عالم خال من الاسلحة النووية. وإلى عالم مليء بالمحبة والصداقة والامان.

وفي ظل هذه الظروف جاء انتخاب ريغان رئيسا للولايات المتحدة الامريكية، وكان يشعر ان العصر الذهبي الامريكي قد فاته يوم كان وضع الولايات المتحدة يمكن ايجازه بجملتين على قول وزير الدفاع الامريكي واينبرغر (الصدارة النووية الامريكية والتفوق العسكري الامريكي) ويضيف (وكانت لنا في الساحة النووية ميزة حاسمة. وقد استثمرنا عبر انواع القوى العسكرية اكثر مما استثمر السوفييت وكان لنا هامش من التفوق في معظم الابعاد العسكرية. لقد ولى ذلك العهد، فقد اصبح الاتحاد السوفيتي قوة عسكرية عظمى من خلال جهد استهلك نسبة من ناتجه القومي الاجمالي تزيد عن ضعف نسبة الاتفاق الدفاعي الامريكي ومن الممكن (ويجب) النقاش حول ما اذا كان يتعين على الولايات المتحدة ان تتهيأ لقبول وضع تكافؤ في القوة العسكرية مع الاتحاد السوفيتي على المدى الاطول. الا انه يجب الا تكون هناك اوهام فيما يتعلق ببرامجنا الدفاعية الحالية. اننا لا نحاول استعادة هامش الميزة السابقة. بل اننا نناضل بالأحرى من اجل كسب الموارد الضرورية لتمكيننا من الاحتفاظ بقوة عسكرية كافية لضمان الردع (25).

اية قوة عسكرية هذه التي يتحدث عنا وزير دفاع ريغان؟ واي ردع يود ضمانه في عصر يطالب فيه العالم كل العالم بالتخلص من سياسة الدمار المؤكد المتبادل في سبيل سياسة البقاء المؤكد المتبادل. ان الردع المضمون الذي يتحدث عنه واينبرغر هو الاستراتيجية القومية الجديدة التي من امثلتها افكار الجنرال دورنبيرغر التي تحدث عنها دانيال غراهام في كتابه الحدود العالية عام 1982 حين يقول (تنشر في المدارات المختلفة حول الارض شبكة من الاقمار الصناعية مؤلفة من 432 قمرا صناعيا يزود كل قمر منها بخمسين صاروخا صغير الحجم. قادرا على تدمير الصواريخ البالستيكية العابرة للقارات اثناء

طيرانها إلى اهدافها المعينة لها. ليس هذا فحسب بل وفي القطاع الفعال من محركها اي في مرحلة التسارع عندما لا يكون المسرع قد انفصل عن جسم الصاروخ وقبل انفصال الرؤوس القتالية عن الصاروخ وتدميرها جميعا بضربة واحدة (26).

وبناء على هذا التصور فان عدد الصواريخ المضادة للصواريخ سيصل إلى 21600 صاروخا.. فاذا عرفنا ان كل ما سمحت به معاهدة الصواريخ المضادة للصواريخ البالستيكية عام 1972 هو مائة صاروخ لكل بلد فإن هذه الاستراتيجية الجديدة لا تدخل في اطار استراتيجية الردع وانما في اطار استراتيجية النصر. استراتيجية الدمار المؤكد للخصم فقط. ما الذي يمنع في حال حدوث ازمة ان تقوم الولايات المتحدة باطلاق صواريخها على الاتحاد السوفيتي وهي تضمن ان الرد السوفيتي سيتم تدميره في الفضاء (ان اغراء شن ضربة وقائية ضد قوات العدو ستزداد في حالة حدوث ازمة كبيرة وباستخدام الاصطلاحات النووية تقول ان امكانية قدرة احدى القوتين الاعظم او كلتيهما على تجريد الاخرى من سلاحها بضربة ناجحة (ضربة اجهاضية) تصبح بالضرورة احد العناصر التي تؤدي إلى اهتزاز عنيف لميزان الرعب) (27).

ويتبنى الرئيس ريغان استراتيجية جديدة تقوم على انقاض معاهدة الصواريخ المضادة للصواريخ البالستيكية التي يعتبرها بالية وغير فاعلة من وجهة النظر الامريكية كما انه يعتبر اتفاقية سولت (1) وسولت (2) رقابة مزعومة على الاسلحة فقد وجد ريغان ان اسلافه لم يقوموا بنشر مجمل شبكة الصواريخ المضادة للصواريخ التي سمحت بها اتفاقية 1972 بل وجد انهم قاموا عام 1975 بتفكيك الموقع الوحيد الذي تملكه امريكا للصواريخ المضادة للصواريخ البالستيكية.

ويعتقد الرئيس ريغان ان الاتحاد السوفيتي قد استثمر جزءا كبيرا من استثماراته لتطوير نشر شبكة الصواريخ المضادة للصواريخ البالستيكية وقد عبر عن ذلك في خطابه إلى الشعب الامريكي بعد قمة ريكيافيك حيث قال (لقد كنا منذ بضعة سنوات على علم بأن السوفييت ريما كانوا عاكفين على تطوير دفاع قومي النطاق. وقد ركزوا رادارا كبيرا عصريا في كراسنوبارسك. نعتقد بأنه جزء هام من نظام رادار مصمم لتوفير ارشادات رادارية للصواريخ المضادة للقذائف البالستيكية) (28). وحين ينظر الرئيس ريجان إلى خارطة العالم السياسية. وتبدو له بوضوح حقيقة العزلة الامريكية كدولة في عالم يسير باتجاه السلام.. وفي ظل قوة عسكرية للاتحاد السوفيتي يصفها المختصون الامريكان بأنها متفوقة على الولايات المتحدة ويقرأ عليه بعض مخرجي هوليود نصوصا من البيان الشيوعي الذي نشره انجلز وماركس عام 1848 حيث جاء فيه (يعلن الشيوعيون بوضوح انه لا يمكن تحقيق غاياتهم الا بالقضاء بالقوة على جميع الظروف الاجتماعية القائمة ولترتعد فرائص الطبقات الحاكمة خوفا من ثورة شيوعية. وليس لدى الكادحين (البروليتاريا) ما يخسرونه سوى قيودهم. كما ان امامهم عالما بأسره سوف يريحونه) (29) ثم يأتيه تقرير روبرت جاسترو أحد علماء الفضاء الامريكيين ومؤسس معهد ابحاث الفضاء الامريكي ومؤسس معهد ابحاث الفضاء ناسا يقول فيه (ان هناك حقيقة لا مراء فيها وهي ان نمو القدرة الصاروخية السوفييتية هو اسرع من نمو قدرتنا. وان هذا النمو يعرض الرادع الاستراتيجي الامريكي للخطر وهذه النزعة مخيفة. واذا استمرت فانها ستؤدي بنا بعد بضع سنوات لهجوم سوفيتي يستهدف التدمير الشامل للقدرة العسكرية الامريكية) (30).

ويأتيه مخرجو هوليود وفي هذه المرة بايعاز من تجار السلاح والمركبات الصناعية التي بنت امجادها

ورساميلها في ظل سباق التسلح، وترى اليوم ان الدعوة إلى نزع السلاح او تقليصه هو استسلام للمخطط الشيوعي. ويذكره المخرجون بما قاله لينين مؤسس الدولة السوفيتية (نحن لا نعيش مجرد دولة بل في منظومة من الدول. ولا يمكن للجمهورية السوفيتية ان تستمر في وجودها مدة طويلة جنبا إلى جنب مع الدول الامبريالية ولا بد في نهاية الامر ان يتغلب احد الطرفين والى ان تحدث هذه النهاية فلا مناص من حدوث صدامات مروعة بين الجمهورية السوفيتية والدول البرجوازية) (31).

وحين يتساءل الرئيس ريغان عن حقيقة القدرة السوفيتية وعن الخطر الشيوعي وكيف يمكن مجابهته. يقدم له الاخصائيون وبعض الخبراء الامريكان مجموعة وصفات جاهزة تتناسب وتنسجم مع طبيعته وافكاره تصب جميعها في ادانة استراتيجية الردع التي (كما يقولون) استغلها السوفييت وطوروا قدرتهم في وقت تساهل فيه رؤساء امريكا السابقون بالتزامهم بالاتفاقيات والمعاهدات في وقت لم يلتزم فيه السوفييت. وكان من نتيجة ذلك انتاج الجيل الرابع من الصواريخ البالستيكية عابرة القارات التي بوسعها ان تضرب مواقع الصواريخ الامريكية وتدمرها فتمنع امريكا من توجيه الضربة الدائمة مما يلغي التوازن الذي على اساسه تم توقيع المعاهدة. كما ان دقة الصواريخ السوفيتية قادرة على ضرب الا هداف الامريكية البرية والبحرية والجوية مما يفقد الثالوث النووي الاستراتيجي الامريكي قدرته على اي رد. هذا اضافة إلى ان السوفييت يمتلكون قواعد ارضية يمكن ان تطلق منها اشعة ليزر لتعترض الصواريخ الامريكية ويعتقد الخبراء الامريكان ان السوفييت سيمتلكون في نهاية الثمانينات قواعد ليزر قادرة على تدمير الصواريخ الامريكية البالستيكية.

وينطلق الرئيس ريغان في سياسته للتعامل مع الاتحاد السوفيتي من ان الاستقرار وحالة الاسترخاء والتساهل التي منيت بها الادارات الامريكية السابقة هي التي جعلت السوفييت ينتهكون اتفاقيات الحد من الاسلحة وان التزام السوفييت بالاتفاقيات يتوقف على قوة الولايات المتحدة وليس على حسن النوايا السوفييتية. ولكي تمتلك امريكا هذه القوة فلا بد من اتباع استراتيجية نقيضه لا ستراتيجية الردع المستقر.. استراتيجية تجر السوفييت إلى مواقع جديدة بعيدة عن ترساناتهم الهجومية والدفاعية على الارض.. يجب نقلهم إلى الفضاء حيث يعتقد ريغان انه يمتلك الاجنحة التي يستطيع ان يحلق بها كالباشق في حين يحتاج السوفييت إلى مظلات لضمان الهبوط على الارض بسلام.. ومن هذه السياسة نبعت استراتيجية حرب النجوم.. استراتيجية التوتر الدائم التي يعطيها ريغان اسما خادعا.. مبادرة الدفاع الا ستراتيجي تماما كما يحمل جيش الكيان الصهيوني اسمه المخادع. جيش الدفاع "الاسرائيلي".

ثالثا: استراتيجية التوتر الدائم

للمرة الثانية في تاريخ الولايات المتحدة الامريكية يتبنى رئيسها افكار عالم الذرة المجري الاصل ادوارد تيلر. كانت المرة الاولى في 31 يناير 1950 حين اعلن الرئيس ترومان انحيازه لافكار تيلر بشأن انتاج القنبلة الهيدروجينية ضاربا عرض الحائط بآراء العلماء الامريكيين بمن منهم ليلنتال رئيس لجنة الطاقة الذرية. وتأتي المرة الثانية على لسان الرئيس ريغان في 23 آذار 1983 حين اعلن عن مبادرة الدفاع الاستراتيجي. وفي الوقت الذي يصر فيه الرئيس ريغان على تسمية مبادرته سلام النجوم فان كل صحافة العالم تتعامل معها باسمها الحقيقي.. حرب النجوم. ومبادرة الرئيس ريغان لم تأت صدفة او مجرد صرعة اعلامية كما حاول البعض تصويرها. ان الجذور الحقيقية للمبادرة واهدافها ووسائل واساليب تحقيقها تمثل استراتيجية متكاملة تنطلق من مبادئ اساسية شاملة ذات ابعاد نفسية وعسكرية وسياسية وعلمية. وللتعرف على هذه الا ستراتيجية لا بد من تحديد الا سس التي انطلقت منها والا هداف التي تسعى

المبادرة لتحقيقها. ولا بد من استعراض شامل لخطة التنفيذ العلمي ومدى مطابقته للخطة النظرية.

1. الاساس النفسي للمبادرة:

ينقسم الاساس النفسي الذي تقوم عليه المبادرة إلى شقين. الاول هو الشعور الامريكي بالعظمة، وبالمسؤولية تجاه العالم. ويعقده التفوق والرسالة الحضارية. والثاني هو عقدة الذنب الكامنة منذ قنبلتي هيروشيما ونجازاكي وما تحمله هذه العقدة من الخوف المطلق اثر انكشاف سر المعرفة المرعبة بالذرة وما تلاها من تطويرات نووية تدميرية تفوق كل تصور. ويبدو التعارض بين شقي الاساس النفسي واضحا. فالتفوق النفسي لا يكفي اذا لم يدعم بالامكانيات المادية التي تهيئ له كل معاني السيطرة والهيمنة على العالم. وهذا لن يتم الا بامتلاك المزيد من الاسلحة النووية الفتاكة التي تتجاوز قدرة الاسلحة لدى الخصم وهذا في حد تعميق لعقدة الذنب وليس خلاصا منها. اين يكمن الحل؟ كيف تستطيع الولايات المتحدة ان تحقق سيطرتها المطلقة على العالم بعيدا عن التهديد بتدميره؟. ويعتقد الرئيس ريغان ان استراتيجية الردع وسياسة التدمير المؤكد المتبادل. هي سياسة تنازلية لا تحقق للولايات المتحدة دورها الحضاري في قيادة العالم ولا تفك عقدة التفوق والعظمة من جهة كما انها تكرس عقدة الذنب من جهة اخرى لأنها تعتمد على التهديد المستمر للبشر بالفناء. يقول ريغان:

(وفي مثل هذا الوضع فاننا نجلس بينما تكون آلاف الرؤوس الحربية مسددة من احدنا إلى الآخر وقادرة على ان تزيل بلدينا كليهما من الوجود. وقد نشر السوفييت بعض الصواريخ المضادة للقذائف البالستيكية حول موسكو كما سمحت المعاهدة بذلك. ولم يتهم بلدنا بنشرها لان تهديد الابادة الشاملة جعل مثل هذا الدفاع المحدود عديم الجدوى (32).

اذن... لا بد من استراتيجية جديدة... بعيدا عن (الاستراتيجية النووية التي يمكن ان توصف بأنها استراتيجية انتقامية تتفانى فيها الدول العظمى كما كانت القبائل تتفانى في غزواتها بعضها للبعض الآخر والتعويل على الغارات النووية الثأرية مهين للكرامة الانسانية) (33).

وينطلق ريغان في مبادرته من ان الرسالة الحضارية للولايات المتحدة هي تخليص العالم مما يسميه خطر الشيوعية (اننا لسنا ضحية اوهام بالنسبة للسوفيات او مراميهم القصوى) التي يعتبرها الكابح لحقوق الانسان. وهو لذلك يطرح الموضوع من وجهة نظره بحدة في لقاءات القمة كما حصل في قمة ريكيافيك حيث جاء في خطابه: ولم نقصر انفسنا على مجرد خفض الاسلحة بل ناقشنا ما نسميه انتهاكا لحقوق الانسان من جانب السوفيات او رفض السماح للاشخاص بالهجرة من روسيا لكي يمارسوا عقيدتهم الدينية دون ان يلحقهم اضطهاد والسماح للناس بالذهاب كي ينضموا إلى اسرهم وأزواجهم وزوجاتهم ممن فرقت بينهم حدود قطرية))(34 وحقوق الانسان هذه لا تنطبق عند ريغان على الشعب الفلسطيني الذي يعيش مشردا ويكافح من اجل حقوقه المشروعة.

ويسمح ريغان لنفسه انطلاقا من عقدة التفوق والرسالة الحضارية بالتدخل في الشؤون الداخلية للاتحاد السوفيتي حين يصرح (ولكني اوضحت ايضا مرة اخرى ان تحسنا في الوضع الانساني داخل الاتحاد السوفيتي هو امر لا مفر منه لحدوث تحسن في العلاقات الثنائية مع الولايات المتحدة. ذلك ان الحكومة التي تنتهك الثقة التي اولاها اياها شعبها لا يمكن ان تؤتمن بأن تحفظ الثقة مع الدول الاجنبية) (35 والولايات المتحدة وهي تحمل رسالة الحضارية تجد ان لزاما عليها ان تدعمها بالقوة.. وليس فقط الشعور بالقوة، ويعتقد ريغان ان مصدر هذه القوة يأتي من تطور جديد يسمح بتكريس عقدة التفوق

ويزيل عقدة الذنب. وهو لا ينكر كما تنكر بطانته من ان مبادرة الدفاع الاستراتيجي هي ورقة الضغط القادرة على ان تجر السوفييت إلى المفاوضات... إلى المعاهدات بالشروط الامريكية.. إلى التسليم بالتفوق الامريكي وليس بالتكافؤ كما كان الحال قائما في عهد الادارات السابقة... يقول ريغان (ولهذا اذا كان ثمة انطباع حملته معي من محادثات تشرين الاول (اكتوبر) هذه، فهو اننا بخلاف الماضي نتعامل الآن من مركز قوة ولهذا السبب فإن في متناولنا ان نتحرك في سرعة مع السوفييت باتجاه مزيد من التقدم البارز (36) ويستطرد ريغان ناشرا رسالته الحضارية على العالم مقتبسا ما قاله سلفه جون آدامز (حيثما ترفرف راية الحرية والاستقلال- سيكون هناك قلب امريكا وبركتها وصلواتها (37) انه نفس القلب ونفس البركة ونفس الصلوات التي تنصب دمارا ونارا على رؤوس الشعوب الباحثة عن نور الاستقلال والحرية. نفس القلب ونفس البركة ونفس الصلوات التي تعطي للكيان الصهيوني كل ما يحتاجه من ادوات الفتك والدمار ليحقق احلامه التوسعية. ويرتكب جرائمه ضد شعوب الامة العربية. وحين تصاب امة ما بعقدة العظمة- عقدة التفوق عقدة الرسالة الحضارية تصبح لها مقاييسها الخاصة بالاشياء والقضايا ويصبح التمييز العنصري اساسا لتقييمها. فالاقلية البيضاء في جنوب افريقيا هم رواد الحرية والاستقلال... وشعب جنوب افريقيا هو المتمرد... المجرم. وحكام الكيان الصهيوني هم نبراس الحضارة الانسانية ونجمة الحرية الساطعة والشعب الفلسطيني هو مصدر الارهاب والخراب في العالم... وهكذا تسيطر الروح الفاشية على طبيعة المجتمع الامريكي الذي يبحث عن نهاية تختلف عن النهاية اليائسة التي انتهت اليها فاشية العهد الهتلري. انه البحث عن فاشية السيطرة وليس فاشية المقبرة... ويجد ريغان الجواب في مبادرة الدفاع الاستراتيجي.. انه يسميها.. مبادرة. وهو يقصد ما يعنيه. فهي ليست خطة وليست برنامجا وانما هي دعوة للمشاركة في انجاز عالمي قابلا للتطوير والتغيير بما يخدم الاهداف الاساسية التي انطلقت اساسا من اجلها.. فهي بالنسبة للشعب الامريكي تستهدف اشعاره بالحماية المطلقة.. وبالتفوق المطلق والمبادرة كما يصفها روبرت هنتر (يمكن تبيين بلاغتها في خمس جمل بسيطة تعبر عن جوهرها. فمبادرة الدفاع الاستراتيجي هي دفاع وليست هجوما يعتمد على الحماية من الهجوم بدلا من التهديد بالابادة الهائلة. وهي لن تكون نووية وسيتم نشرها في الفضاء وليس على التراب الامريكي. ويمكن ان تؤدي إلى القضاء على الاسلحة النووية الهجومية (او خفضها) وبذلك ينتهي طغيان التدمير المؤكد المتبادل. وعلاوة على ذلك تعيد الولايات المتحدة الواسعة من المحيطات الواسعة التي تمنع الهجوم. وسيتم انتاجها من خلال عبقرية ومهارة التكنولوجيا الراقية في الولايات المتحدة الامريكية. وهي في كل الاحوال تجذب وتستثير شيئا كامنا في الطبيعة والخبرة التاريخية الامريكية. ويتضمن ذلك الرغبة المحبطة البادية منذ هيروشيما في التخفيف من الاعباء التي فرضت عندما انكشف الستار عن المعرفة المرعبة بالذرة. وبدأت منذئذ تهدد بقاء الجنس البشري. وهكذا فإن مبادرة الدفاع الاستراتيجي اجابة على عودة بروميثيوس) (38).

2. الاساس العسكري للمبادرة:

ينطلق الاساس العسكري للمبادرة من ان السوفييت يتفوقون عسكريا على الولايات المتحدة بمراحل وذلك بسبب عدم التزامهم، كما يعتقد الخبراء الامريكيون، بمعاهدة الحد من الصواريخ البالستيكية المضادة. وانهم طوروا تسليحهم الصاروخي المضاد بانتاج جيل من الصواريخ البالستيكية الامريكية وتدميرها وهي في صوامعها. وبهذا يكون السوفييت قادرين على تجريد الولايات المتحدة من قدرتها على توجيه اية ضربة مضادة.

وبالرغم من المعلومات التي يحشدها الخبراء الامريكيون حول التفوق العسكري السوفيتي فانه من الواضح ان المبالغة وضعت من اجل تسويق المبادرة لدى الشعب الامريكي بحيث يصبح قادرا على التأثير

على الكونجرس لتأمين الالتزامات المالية الباهظة الضرورية للمبادرة. وفي هذا الاطار يحاول انصار المبادرة ان يظهروا التفوق السوفيتي وكأنه توجه مدروس من السوفييت باتجاه تجاوز استراتيجية الردع وسياسة التدمير المؤكد المتبادل نحو سياسة التفوق المطلق واستراتيجية النصر. ويسوقون لذلك وصف سيناريوهات متكاملة. ويستشهدون بتعبيرات سوفيتية منتقاة خارج اطار سياقها كما فعل مارسو فيلدن في كتابه الحرب في الفضاء حيث ثبت قول المارشال سكولوفسكي (بأنه في الامكان الانتصار في الحرب النووية في بعض الظروف وبعض الاحوال..) وهو النص الموجود في كتاب سكولوفيسكي "الاستراتيجية العسكرية" وحيث ان هذا النص موجود ايضا في "كتاب الضباط" الصادر عن الحزب الشيوعي فإن مبادرة الرئيس ريغان يستخدمونه للترويج لها. فهي وحدها في نظرهم القادرة على حماية الثالوث الاستراتيجي النووي للقوات الامريكية من الدمار. وكما هو معروف فإن قوة امريكا النووية الضاربة تتكون من ثلاثة أركان:

1. الركن البري

ويتكون اساسا من مرابض صواريخ مينتمان وادارياتها.

(ويعتقد الجنرال جوهن فيسي رئيس هيئة الاركان الامريكية ان ضربة سوفيتية مفاجئة يمكن ان تدمر سبعين إلى خمسة وسبعين في المائة من هذه الصواريخ. ثم ان درجة الدقة التي بلغها الجيل الخامس من الصواريخ والتي تتوافر للقذائف السوفيتية تتيح للسوفييت ان يدمروا مراكز الضباط الامريكيين الذين يضغطون على أزرار الصواريخ الامريكية. وتمكنهم من نسف الاسلاك التي تنقل اوامر الرئيس لهؤلاء الضباط فيزول بذلك مفعول الركن الا رضي للثالوث الا ستراتيجي وتضعف امكانية توجيه الضربة الصاروخية الامريكية المضادة للضربة السوفييتية المفاجئة) (39).

2. الركن الجوي

ويتكون اساسا من قاذفات ب - 52 وهي طائرات هرمة يصفها وزير الدفاع الامريكي واينبرغر بأنها (لن تستطيع اختراق الخطوط الجوية الدفاعية السوفيتية في اواسط الثمانينات. وتحاول وزارة الدفاع الامريكية تدارك شيخوخة قاذفات ب - 52 بإنتاج ب - ا ب لتحمل صواريخ كروز إلى الحدود السوفيتية وتطلقها نحو اهدافها) (40).

وحيث ان سبعين في المائة من طائرات ب - 52 تكون عادة بدون تأهب فانه يمكن تدميرها بالصواريخ السوفيتية. اما ما تبقى ويستطيع الطيران فانها غير قادرة على الوصول إلى اهدافها في الاتحاد السوفيتي وذلك بسبب بطئها وكشفها من الرادار السوفيتي من جهة. ولوجود نظام منيع للدفاع الجوي يشمل الطائرات المقاتلة وصواريخ سام باعداد هائلة وبهذا يكون الركن الثاني للثالوث الا ستراتيجي الامريكي قد انهار.

1. الركن البحري

ويتشكل من اسطول الغواصات النووية. وهو بسبب تحركه الدائم تحت سطح الماء وبعيدا عن الرقابة

السوفيتية فانه يظل الركن الاقوى في الثالوث الاستراتيجي الامريكي. وهو قادر على اطلاق صواريخه من اعماق البحار باتجاه اهداف في الاتحاد السوفيتي. ولكن هذا الركن ايضا يواجهه اسطول الغواصات السوفيتية إلى جانب الابحاث التي يقوم بها السوفييت للتوصل إلى وسائل تجعل البحار والمحيطات شفافة للرقابة السوفيتية وبذلك يصبح الركن الثالث هدفا مكشوفا، وبذلك يتعرض الثالوث الاستراتيجي الامريكي للخطر.

هذه الصورة للخطر على الولايات المتحدة هي التي يروج لها انصار مبادرة الرئيس ريغان باعتبار ان اي رئيس يرى حالة بلاده كما هي عليه الولايات المتحدة لا بد له ان يبحث عن استراتيجية جديدة ليحميها.. وهو اما اني يجد نفسه كما يقول كيسنجر (يقرر توجيه الضربة الاولى فيقضي على ملايين من المواطنين الامريكيين بسبب الضربة السوفييتية المضادة. فلا يكن امامه الا... الانتحار او الاستسلام) (41). وحتى الآن فإن سياسة التدمير المؤكد المتبادل هي التي منعت اي من الطرفين توجيه الضربة الاولى. ولكن الرئيس ريغان يعتقد ان الثغرات العسكرية في توازن الرعب النووي قد تغري السوفييت بالتحول إلى استراتيجية النصر. ولهذا قام بتبني مبادرته لتكون الدرع الذي يحمي الولايات المتحدة من اي خطر سوفيتي محتمل. ولكن حقيقة مبادرة الرئيس ريغان هي أنها استراتيجية جديدة متكاملة تستهدف الارباك الشامل للعالم وتنشر حالة التوتر الدائم التي هي المنفذ الوحيد الذي تستطيع الامبريالية عبره اطالة عمرها.. ومن محاولة اعادة سيطرتها المطلقة للعودة إلى استراتيجية الحرب.. حرب النجوم الحرب التي يتصورها ريغان حين يكون قادرا على العودة بالولايات المتحدة بعيدا إلى ما قبل الحرب العالمية الثانية حيث حدودها ابعد من ان تصل اليها اية قذيفة.. انها الحدود العالية. واسوار الفضاء المحاطة بأسلحة الدمار القادرة على ان تضمن التفوق الهجومي بتوجيه الضربة الاولى من الارض ضد الاتحاد السوفيتي.. وهي ضامنة ان الضربة السوفييتية المضادة ستحطمها اسلحة حرب النجوم الحدودية وهي في مرحلة التعزيز على ارض الاتحاد السوفيتي. وبذلك يفرض شروط الاستسلام التي يريدها.

3. الاساس السياسي للمبادرة

تعتمد الرؤية الشمولية لابعاد المبادرة سياسيا لتغطي ساحات النشاطات السياسية الامريكية مع الاتحاد السوفيتي والدول الاشتراكية اولا.. ثم مع الدول الحليفة في اوروبا الغربية والكيان الصهيوني واليابان وكندا ثانيا ثم مع دول العالم الثالث وهي ما تشمله مجموعة دول عدم الانحياز ثالثا. ثم مجموعة حركات التحرر الوطني في آسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية رابعا: وبالرغم من ترابط الاسس السياسية الامريكية في المجالات المختلفة الا ان الابعاد الاساسية سياسيا لكل ساحة تشتمل خصوصيات لا بد من توضيحها.

أ. الاتحاد السوفيتي والدول الاشتراكية

اذا كان الاساس العسكري للمبادرة قد اقتصر بشكل كامل على ما حققه الاتحاد السوفيتي من امكانيات المجابهة الصلبة في وجه نزعة التفوق الامريكية ومتطلباتها. فإن السياسة السوفييتية كما يراها الامبرياليون هي الاستراتيجية العسكرية بوسائل سلمية. فاستراتيجية السلام التي يتبناها الاتحاد السوفيتي والمنظومة الاشتراكية تلاقي في العالم تأييدا واجماعا دوليا باعتبارها الاستراتيجية الوحيدة المنطلقة من مصلحة الانسان اينما كان. وهي الطريق الوحيد امام عالم خال من الاستعمار والامبريالية وخال من الاستغلال وخال من الاسلحة النووية. وامام هذه السياسة وفي مواجهتها يطلق ريغان مجموعة

من الاكاذيب عن سياسة المراوغة السوفيتية. وعدم الالتزام بالمواثيق والعهود ويتحدث عن الاتحاد السوفيتي وكأنه بلاد وشعوب مستعمرة من قبل قيادة تحكمها بالحديد والنار وانها محرومة من الديمقراطيات الفردية. ولكن ردود الفعل على سياسة الولايات المتحدة تجاه الاتحاد السوفيتي لا تأتي من الاتحاد السوفيتي والمنظومة الاشتراكية وانما عبر الاجماع الدولي وما تنص عليه وثائق وقرارات الامم المتحدة وكل المؤتمرات الدولية المتعلقة بموضوعات السلام.. والتضامن والصداقة في العالم.

ويعتبر الرئيس ريغان ان الاساس الايديولوجي للاشتراكية هو المعول الذي يقوض اركان الامبريالية باعتبارها اعلى مراحل الرأسمالية. وان سياسة الاتحاد السوفيتي في دعم حركات التحرر في العالم والوقوف إلى جانب الشعوب المستعمرة لتحرير اقطارها وتحقيق استقلالها هو الذي حقق الهزيمة للامبريالية في الفيتنام وجنوب شرق آسيا وفي افريقيا وامريكا اللاتينية. وان هذه السياسة هي التي جعلت امريكا تلجأ إلى استخدام حق الفيتو عشرات المرات في مجلس الامن الدولي إلى جانب انكشافها معزولة في الجمعية العمومية حين لا تجد غير الكيان الصهيوني وجنوب افريقيا تقفان معها في مواجهة العالم. فسياسة الاتحاد السوفيتي تلاحقه في عقر داره وبين حلفائه الذين يبحثون عن ثغرات سياسية يعبّرون فيها عن استقلالهم الحقيقي وخلاصهم من الهيمنة الامريكية. وتبدو استراتيجية السلام السوفيتية في اوضح صورها عند بحث موضوع التسلح النووي. وخطورة الخوض في مباراة سباق التسلح المدمرة. والدعوة الصريحة والواضحة بنزع السلاح. وتدمير الترسانات النووية القادرة على افناء البشرية بغمضة عين. ويعتمد الاتحاد السوفيتي في حملته المضادة للحرب النووية على كارثتي انفجار تشالنجر الامريكي وحادثة تشيرنوبيل السوفيتية حيث تذكر هذه الامثلة المأسوية المحدودة والضيقة النطاق بالفاجعة الكونية الشاملة التي من الممكن ان يقود سباق التسلح النووي العالم اليها. وترى سياسة الرئيس ريغان ان حالة الاستقرار هي التي تمكن الاتحاد السوفيتي من تحقيق انجازات اقتصادية واجتماعية متطورة داخل المجتمع السوفيتي وفي المنظومة الاشتراكية مما يؤمن الامكانيات غير المحدودة للاتحاد السوفيتي ليقوم بدعم القوى المناوئة لامريكا. وفي مواجهة هذا الوضع يعتقد الرئيس ريغان ان مشروع حرب النجوم من شأنه ان يجر الاتحاد السوفيتي لخوض معركة التكافؤ العسكري على حساب التنمية الاقتصادية مما يفقده الاستقرار المحلي والاقليمي ويحرمه من التمدد العالمي على مستوى دعم الشعوب المضطهدة وحركات التحرر الوطني فيها. ويعتقد وزير الدفاع الامريكي واينبرغر ان اهمية مبادرة الدفاع الاستراتيجي تكمن في كونها السبيل الوحيد لجر السوفييت إلى طاولة المفاوضات من جديد وفرض الوصول معهم إلى اتفاقيات جديدة حول الاسلحة النووية الدفاعية والهجومية التي تلغي الاتفاقيات السابقة بما تحمله من تنازلات من الجانب الامريكي لصالح السوفييت.. ويبدو ان هذا السبب هو الاساس الذي استطاع ريغان ان يقنع وزير دفاعه بالتحول من معارض للمبادرة يوم اعلانها إلى اشد انصارها تحمسا.. ولا تحمل ورقة حرب النجوم لامريكا مجرد تعزيز موقفها التفاوضي والتعويض عما تعانيه من تفوق سوفيتي في ميزان القوة العسكرية فحسب. وانما تلعب هذه الورقة دورها بالرغم من مصداقيتها او عدمها وبالرغم من امكانية التفوق الامريكي أو عدمه.. تأتي اهميتها من فرضها ارهاقا لا محدودا في الميزانية السوفيتية وقد تنبه القادة السوفيت إلى هذا الركن الاساسي في ابعاد المبادرة وجاء رجهم واضح وصريحا على اصرارهم على التفاوض على اساس الموقف المبدئي الهادف إلى السلام العالمي من جهة والى عدم الانجرار في مباراة المشاريع الامريكية والغرق في سباق تسلح جديد. وقد عبّر عن ذلك الامين العام للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي غورباتشيف في 16 آب 1986 (دعهم... لا يعقدون الامل على اخافتنا او دفعنا إلى تحمل نفقات غير ضرورية. اذا اقتضت الضرورة فسوف نجد الرد سريعا علما بأنه سيكون ردا يبطل قيمة حرب النجوم) (42).

وقد اكد غورباتشيف هذا الموقف في خطابه بعد لقاء ريكيافيك في 12 آب 1986 حيث قال (ان مبادرة

الدفاع الاستراتيجي لا تخيفنا. وانا اعلن هذا بكل ثقة. لان مزاولة البلف والخديعة في مثل هذه المسائل امر يفتقر إلى المسؤولية، سيكون هناك رد على مبادرة الدفاع الاستراتيجي رد غير منتظر. لكنه سيكون. وف هذه الحالة لن نضطر إلى التضحية بالكثير) (43).

ب- الدول الحليفة للولايات المتحدة

الكيان الصهيوني، دول حلف الاطلسي، اليابان.

قامت الولايات المتحدة في معرض تسويق المبادرة وتعميمها على المستوى العالمي بعرض المشاركة فيها على سبع عشرة دولة تضم الكيان الصهيوني ودول حلف الاطلسي واليابان، ولاعطاء المبادرة صفة السلمية فقد جاء عرض ريغان خلال لقاء ريكيافيك على غورباتشيف بضرورة مشاركة السوفييت فيها وبالتعاون من اجل انجازها ووعد بتقديم المعلومات عن أي تقدم في البحوث للاتحاد السوفييتي. وكان رد غورباتشيف انه لا يأخذ هذه الافكار على محمل الجد الولايات المتحدة ترفض حتى الآن تقديم المعدات لمعامل الالبان للاتحاد السوفييتي.

ويدرك الرئيس ريغان ان الامكانيات المادية لدول الشعوب الاوروبية وحلف الناتو غير قادرة على مجاراة المتطلبات المادية الباهظة للمبادرة. وهذا يجعلها تعود من جديد للتفيؤ تحت مظلة الحماية الامريكية الفضائية الجديدة. ولقد ادرك معظم الدول الاوروبية هذه الحقيقة مبكرا وجاء موقف فرنسا الواضح والصريح للمبادرة وما تحمله من بوادر فرض الهيمنة الامريكية على مقدرات شعوب اوروبا. ولقد ابدى الاوروبيون بشكل عام مخاوفهم من مساعي عسكرة الفضاء لما تحمله من مخاطر التوتر الدولي الذي ينعكس بصورة مباشرة على اوروبا. لقد قامت بين الدول الاوروبية خلال مرحلة الوفاق شبكة من المصالح الاقتصادية مع الاتحاد السوفيتي والدول الا شتراكية ولقد عبر الرئيس ميتران وكذلك رئيسة وزراء بريطانيا (قبل انضمامها للمبادرة) وغيرهما من قادة الدول الاوروبية الغربية عن قلقهم تجاه الاسلحة الفضائية وتخوفهم من البرنامج الذي يجعلهم ملحقين حيث يلغي دور قوتهم النووية ويجعل مصيرهم يتقرر في غيابهم على مائدة المفاوضات الامريكية السوفيتية.

ولكن ضغوط امريكا واغراءاتها استطاعت بعد مضي اكثر من سنتين ونصف على الحاق بريطانيا في المشروع في 6 ديسمبر 1985 وتبعتها المانيا الغربية في 18 ديسمبر 1985.

وفي نهاية نيسان 1986 تحرك اللوبي الخفي الدائم لمشروع حرب النجوم والذي ترأسه دانيال غراهام صاحب كتاب "الحدود العالية... الاستراتيجية القومية الجديدة". وذلك من اجل دعم البرنامج وتعميمه عالميا. لقد تشكل اللوبي من كل الانصار للمبادرة والمستفيدين منها في امريكا واليابان وبدأت الاجتماعات في ميرانو واسفرت عن تشكيل ناد عالمي لدعم المبادرة. كما اتخذوا قرارا بتشكيل مبادرة الدفاع الاوروبية وذلك لتشجيع اوروبا على المساهمة الفاعلة والانخراط الكامل في حرب النجوم من موقع اقليمي مستقل ولكنه مرتبط ارتباطا اساسيا بالمشروع الامريكي الأم. وقد صرح الجنرال مور نائب رئيس مجلس الحدود العالية لشؤون العمليات لجريدة ليبراسيون (نحن نفكر باقامة مستويين دفاعيين.. المطلوب من مبادرة الدفاع الامريكية اقامة حماية من الصواريخ البالستيكية العابرة للقارات. مع وجود مبادرات دفاع اقليمي في الوقت نفسه في اوروبا وافريقيا والشرق الاوسط والادنى (يقصد بذلك اسرائيل وفي المحيط الهادي أن مجموع هذه المنظومات المختلفة سيؤدي إلى تشكيل منظومة عالمية عتيدة للدفاع الاستراتيجي (44).

ج- مجموعة دول العالم الثالث.. دول عدم الانحياز

في الفترة التي احتكرت فيها امريكا السلاح النووي سادت استراتيجية الحرب وكانت معظم شعوب العالم تعاني من الاستعمار باشكاله المختلفة. ويوم كسر الاتحاد السوفيتي احتكار السلاح النووي وبدأت استراتيجية الردع والتوازن النووي تشق طريقها وجدت كثير من الشعوب طريقها للنضال من اجل التحرر والاستقلال. ومع فجر اضواء الحرية بدأت فكرة عدم الانحياز وهي فكرة تقوم على اساس تدعيم السلام العالمي ومنع الاستقطاب وبناء المحاور والاحلاف على مستوى عالمي. ومع اتساع النادي النووي الدولي اصبحت بعض دول عدم الانحياز من اعضائه. واتسع دور مجموعة دول عدم الانحياز في المجال السياسي الدولي وفي الامم المتحدة بحيث بدت في معظم الحالات وكأنها منحازة ضد الولايات المتحدة، نظرا لان سياسة امريكا تقوم على اساس معاداة الشعوب. وقد وجد ريغان مشروع مبادرته للدفاع الاستراتيجي سيلعب دورا حاسما في تفتيت مجموعة دول عدم الانحياز وهو يدرك ان الاتحاد السوفيتي لن يقف مكتوف الايدي امام مبادرته الفضائية. وان دول عدم الانحياز ستجد نفسها خارج اطار اية مظلة للحماية الذاتية مما يدفعها إلى الانضواء في ظلال امريكا او الاتحاد السوفيتي وبذلك تنتهي فكرة عدم الانحياز لصالح الاستقطاب العالمي ولقد وعى الاتحاد السوفيتي خطة امريكا منذ البداية. ولذلك كان رده على المبادرة الامريكية باجهاضها والتصدي لها في كافة المجالات. وقرر عدم الخوض في سباق تسلح فضائي وانما الرد بالطرق المناسبة دون التورط في استنزاف موارده المادية. وجاءت مواقف معظم الدول الاوروبية منسجمة مع مواقف دول عدم الانحياز في رفض مشروع حرب النجوم ورفض استراتيجية التوتر الدائم التي يحاول ريغان ان يفرضها على العالم.

د- مجموعات حركات التحرر

لقد ادركت ريغان ان مرحلة الوفاق الامريكي السوفيتي كانت مرحلة الانتفاضات والانتصارات الشعبية ضد الا ستعمار والامبريالية والعنصرية. وحيث ان مرحلة الوفاق تتميز باتفاق الدولتين على نقاط الاختلاف، وهي دائما اقليمية محلية لا تشكل خطرا على السلم العالمي. وحين تكتشف الولايات المتحدة انه بالرغم من دعمها اللامتناهي للقوى المضادة للثورة في آسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية، فان النتائج كانت بشكل اساسي ضد مصالحها حيث ان الدعم الذي يقدمه الاتحاد لحركات التحرر كان يساعدها على انجاز مهام النضال الوطني والتحرر والاستقلال. وتجد ادارة ريغان ان استراتيجية التوتر الدائم، وبدء صفحة جديدة من عدم الوفاق تتميز العلاقة فيها بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي بالاختلاف على نقاط الاتفاق مما يضع كل الاتفاقيات والمعاهدات على طاولة المفاوضات من جديد ابتداء من اتفاقية سالت (1) وسالت (2) واتفاقية الصواريخ المضادة للصواريخ.. وغيرها.. هذه الإستراتيجية الجديدة من شأنها ان تجعل الاتحاد السوفيتي اقل اندفاعا في دعم وتأييد حركات التحرر وكفاحها المسلح حيث يمكن ان يتسبب ذلك في تطور الحرب المحلية او الاقليمية إلى حرب عالمية. وقد عبر مقال الدكتور بليماك في البرافدا بتاريخ 14/11/1996 عن ذلك بقوله (وفي ايامنا هذه فإن بقاء عدد من البلدان تحت النظم الدكتاتورية والتصدير المتزايد للثورة المضادة لي يسمحا بنزع اشكال النضال المسلح من دعوتنا اليوم. ولهذا ينبغي ان نعي ان اي استبعاد محدود لبعض البلدان من الظروف العامة للعصر النووي كتكرار لنموذج ما قبل العصر النووي يكون بصورة نسبية جدا. فإن اي صراع محلي يتجه إلى ان يتحول إلى صراع اقليمي بل وحتى عالمي. فالعصر النووي يتطلب من القوة الثورية الاتزان لاقصى حد ممكن في تبني الحل بالنضال المسلح والرفض المبدئي للاتجاهات الاخرى لان ذلك يعتبر تعصبا يساريا. ومن جهة اخرى فإن هذا العصر لا يمنع ابدا ضرورة مواجهة الرجعية والثورة المضادة مواجهة حاسمة حيث يحاول العنف القضاء على مكاسب الشعب الديمقراطية والاشتراكية ومحاولة ارجاع التقدم التاريخي إلى

الوراء (45).

4. الاساس العلمي للمبادرة

شهدت حقول دوفين للتجريب في صحراء نيفادا اول نجاح لتفجير نووي سجل في مخرج الجهاز الليزري روتنجين مترابط. لقد تحقق ذلك في شهر نوفمبر 1980 بعد سلسلة من تجارب فاشلة قام بها مخبر ليفرموز. ولا تزال التجارب العلمية مستمرة في حقول التجريب في صحراء نيفادا في نطاق برنامج تعميم الليزر الروتنجيني. ويعتقد العلماء ان النتائج الباهرة التي توصل اليها مختبر الاشعاعات الوطنية في ليفرمور هي السبب الذي دفع الرئيس ريغان إلى اعلان مبادرته للدفاع الاستراتيجي. وتنطلق الفكرة النظرية العلمية للدفاع الا ستراتيجي من تأمين امكانية تدمير الصواريخ عابرة القارات منذ لحظة انطلاقها وقبل وصولها لا هدافها. وحيث ان الصاروخ عابر القارات يمر بمراحل مختلفة منذ لحظة انطلاقها وقبل وصولها لا هدافها. وحيث ان الصاروخ عابر القارات يمر بمراحل مختلفة منذ الانطلاق وحتى الهدف فان الدفاع لا بد ان يتخذ انساقا متعاقبة بحيث يتابع الصاروخ في كل مراحل حركته. وحين اعلن الرئيس ريغان عن مبادرته وجه نداء إلى العلماء الامريكيين دعاهم فيه إلى البحث عن وسيلة مناسبة من اجل حماية الولايات المتحدة وحلفائها من خطر تهديد نووي وذلك لتعطيل فعالية هذا السلاح. كما اعلن الرئيس ريغان بأنه يهدف إلى اعطاء دفعة جديدة باتجاه البحوث المتعلقة بالانظمة الدفاعية المضادة للصواريخ. ولكي نتعرف جيدا على الاساس العلمي للمبادرة لا بد لنا من استعراض مراحل انطلاق الصواريخ عابرة القارات وتحليقها وتحديد نقاط الضعف فيها والتي هي مصدر قوة الاساس العلمي للمبادرة.

ينطلق الصاروخ من الارض او من الغواصات مدفوعا بمحركات دافعة كيميائية وتبقى محركاته متوقدة لفترة من 3-5 دقائق يصبح فيها الصاروخ على ارتفاع 200-400 كلم ويعتمد ذلك على عوامل مختلفة منها الظروف الجوية ووزن الرؤوس البالستيكية المستخدمة. وهذه المرحلة تسمى مرحلة التعزيز وهي اهم المراحل فيما يتعلق بمبادرة الدفاع وذلك لسهولة رصد الصاروخ بكل اجزائه ومحركاته المشتعلة خصوصا وان تدميره في هذه المرحلة يتم وهو فوق اراضي البلد الذي اطلقه.

وفي نهاية مرحلة التعزيز تنفصل عن الصاروخ المحركات وخزانات الوقود الدافعة ويتحول إلى مركبة فضائية خارج الغلاف الجوي وبارتفاع يعادل طبقتين او ثلاث طبقات جوية. وبعد 5-7 دقائق تنفصل عن المركبة الرؤوس النووية المبرمجة مسبقا لتتجه نحو اهدافها. وتقوم المركبة باطلاق اعداد كبيرة من الرؤوس النووية المزيفة وبالونات تحمل رؤوسا مزيفة وحقيقية ورقائق التشويش المعدنية المضادة للرادارات والاشعة تحت الحمراء وذلك لتعقيد عملية الدفاع حيث يصعب التمييز بين الرؤوس النووية الحقيقية والمزيفة.

وفي المرحلة النهائية تتوجه الرؤوس النووية نحو الارض باتجاه اهدافها العسكرية او المدنية وتدخل الغلاف الجوي فيتضاعف وزنها وتتعرض إلى حرارة عالية نتيجة للاحتكاك في الاجزاء الجوية السفلى. وبعد وقت لا يتجاوز الدقيقتين تصيب الرؤوس اهدافها بزاوية افقية تتراوح بين 15-35 درجة. ومعدل سرعة الصاروخ 7 كلم في الثانية وبذلك تستغرق رحلة العشرة آلاف كلم حوالي نصف ساعة.

ان عملية الدفاع تكون فعالة عندما تواجه الصواريخ وهي في مرحلة الانطلاق، وحيث ان الصواريخ في هذه الحالة تكون في اجواء البلد المهاجم فانه من المتعذر على أي نظام دفاعي على الارض ان يتصدى

لها ويهاجمها. ولذلك فلا بد من وجود شبكة الدفاع في الفضاء. ولتحقيق عملية التصدي للصواريخ في هذه المرحلة فان النسق الدفاعي المتكامل يتطلب اولا تحديد مكان وزمان الصاروخ الهدف عبر عملية استشعار دقيقة وسريعة حيث ان مرحلة الانطلاق يتم الآن انقاصها من ثلاث دقائق إلى اقل من دقيقة واحدة. وهذه يلغي امكانية الاعتماد على العنصر البشري في ادارة المعركة الدفاعية. ويتطلب ثانيا استخدام كمبيوتر مؤهل لمواجهة كل المتغيرات المحتملة. ويتطلب وجود السلاح الفعال والسريع القادر على تدمير الصاروخ. والاستشعار البصري يتميز بسرعته العالية حيث تساوي سرعة الضوء 300 ألف كلم في الثانية. وباستخدام اشعة الليزر كسلاح فعال في هذه المرحلة يتميز هو ايضا بسرعته الهائلة المساوية لسرعة الضوء. فإن العلماء يعتقدون ان هذا النسق قادر على تدمير 90 % من الصواريخ وما تحمله من الرؤوس النووية.

الما النسق الثاني للدفاع فإنه يستهدف تدمير الرؤوس النووية التي تجاوزت مرحلة الانطلاق وانفصلت عن الصاروخ وتكون على ارتفاع 600-1200 كلم. وهذه المرحلة شديدة التعقيد لما تشمله من التمويه وتعدد الاهداف الكاذبة وصعوبة الفصل بين ما هو حقيقي وما هو كاذب. وتستخدم في هذه المرحلة اسلحة الطاقة الحركية الموجهة من المدافع الكهرومغناطيسية او بواسطة صواريخ صغيرة مزودة برؤوس توجه ذاتيا بالاشعة تحت الحمراء او بالحرارة.

ويعتمد النسق الدفاعي الثالث على الصواريخ الاعتراضية المنطلقة من الارض للتصدي للرؤوس النووية بعد دخولها الغلاف الجوي وعلى ارتفاعات متوسطة 100-800 كلم او ارتفاعات منخفضة 9-14 كلم ويعتمد هذا النسق على الرادارات لكشف مكان وحركة الرأس النووي. علما بأن تفجيره على ارتفاع منخفض يحلق اضرارا جسيمة، بسبب الاشعاعات النووية القريبة من الارض. ولكن الاخطر هو قدرة الرأس النووي على تخطي كل انساق الدفاع ووصوله للهدف. وهنا تكمن نقطة الضعف الكبرى في مبادرة الدفاع الاستراتيجي حيث يكفي ان يصل عدد محدود جدا من الرؤوس النووية إلى الاهداف العسكرية او المدنية لتطوي صفحة الحياة في هذا الكون.

ان الاساس العلمي للمبادرة من وجهة النظر الدفاعية الاستراتيجية مليء بالثغرات المدمرة والتي تفقد المبادرة اي معنى ولكنها تكشف حقيقة واضحة... تكشف ابعاد المبادرة المؤامرة على البشرية وبتعريضها للخوض في استراتيجية التوتر الدائم والقلق المستمر على الكون لما يحمله الاساس العلمي للمبادرة وما عبرت عنه الاسس النفسية والعسكرية والسياسية من ان المبادرة تحمل في طياتها نوايا الهجوم الاستراتيجي الذي يقوم اساسا على مبدأ الضربة الامريكية الاولى ضد الاتحاد السوفيتي، في حين تكون مهمة اسلحة الفضاء الغاء امكانية تأثير ضربة سوفيتية ثانية وبهذا يطمح ريغان إلى فرض الاستسلام على الاتحاد السوفيتي ناسيا ان الثغرات في سياسته الهجومية والدفاعية اكثر من ان تحصى وان خطوات التوتر الدائم والحلم باستراتيجية الحرب المنتصرة لن يقود إلا الى دمار العالم. ناهيك عن خطورة احتمال اندلاع الحرب النووية عن طريق الخطأ بسبب الاعتماد الكلي فيها على الاجهزة الصماء.

وهذا الاحتمال يرسم امام العلماء والسياسيين الدرب الوحيد لاستمرار الحياة وانتعاشها وهو درب السلام الذي ينتفي فيه وجود الاسلحة النووية والمشاريع الدفاعية الباهظة التكاليف لتصبح الملايين من الدولارات القاتلة مصدر تنمية وازدهار شعوب الارض جميعها.

هوامش

1. طوني فرانسيس: الخطر النووي يخيم على الشرق الاوسط ايضا. دار الفارابي،2- بيروت 1986،3 ص. 12.
2. ونالد ريغان: من خطابه للشعب الامريكي في 12 أكتوبر 1986 بعد لقاءه القمة في ريكيافيك.
3. وليم فوستر: دراسة في التاريخ السياسي الامريكي. موسكو 1953،6 ص. 628 ذكره كتاب تاريخ السياسة الخارجية للاتحاد السوفييتي. الجزء الثاني - دار التقدم،7 موسكو 1980،8 ص. 28.
4. و. ه. مكنيل: اميركا،10- بريطانيا،11 روسيا،12 التعاون والتصادم (1941-1946)،13 ص. 668 ذكره كتاب تاريخ السياسة الخارجية للاتحاد السوفييتي،14- ص 26.
5. هـ. ترومان: الاوراق العامة لرؤساء الولايات المتحدة. واشنطن 1961 ص. 549.
6. كولن بادن وبيترموني: من الحرب الباردة حتى الوفاق 1945-1986،17 ترجمة صادق عودة دار الشروق،18 عمان 1983 ص. 127.
7. مجلة فورن افيرز: يناير 1957،20 ص. 347 ذكره كتاب تاريخ السياسة الخارجية للاتحاد السوفييتي. ص. 32.
8. كولن بادن وبترموني: مصدر سابق،22 ص. 127.
9. ن. م. س. س بلاكيت: التأثيرات العسكرية والسياسية للطاقة الذرية. لندن 1949. ذكره كتاب السياسة الخارجية للاتحاد السوفييتي،24 ص. 32.
10. "لوك": 24 نوفمبر 1959.
11. طوني فرنسيس: مصدر سابق،27 ص. 84.
12. كولن بادن وبترموني: مصدر سابق،29 ص. 128.
13. المصدر السابق،31 ص. 129.
14. المصدر السابق،33 ص. 129.
15. بسام سخيطة: جريدة القبس عدد 613 بتاريخ 5/2/1987.
16. المصدر السابق.
17. د. حسن صعب: المبادرة الدفاعية الاستراتيجية الامريكية او حرب النجوم. منشورات الجامعة العربية. تونس ايار 1986،37 ص. 2.
18. كاسبر واينبرغر: استراتيجية الدفاع الامريكية. مركز التخطيط (م. ت. ف.) شؤون استراتيجية 10/1986 عن مجلة فورن افيرز مجلد 64 عدد 4 ربيع 1984،39 ص. 19
19. كولن بادن وبترموني: مصدر سابق،41 ص. 221.
20. بسام سخيطة: مصدر السابق.
21. انجلوم كودفيلا: كيف يتم تخريب مبادرة الدفاع الاستراتيجي من الداخل. مركز التخطيط (م. ت. ف.) شؤون استراتيجية ملحق 10/1986 عن مجلة كومنتاري مجلد 81 عدد 5 مايو 1986،44 ص. 7.
22. المصدر السابق: ص. 8.

23. كولن بادن وبترموني: مصدر سابق،47 ص. 124.

24. المصدر السابق: ص. 124.

25. كاسبار واينبرغر: مصدر سابق،50 ص. 2.

26. بسام سخيطة: مصدر سابق.

27. كولن بادن وبترموني: مصدر سابق،53 ص. 232.

28. رونالد ريغان: الخطاب بعد قمة ريكيافيك.

29. كولن بادن وبيترموني: مصدر سابق،56 ص. 9.

30. روبرت جاسترو: ذكره حسن صعب،58 مصدر سابق،59 ص. 16.

31. كولن بادن وبترموني: مصدر سابق،61 ص. 9.

32. رونالد ريغان: الخطاب بعد قمة ريكيافيك.

33. المصدر السابق.

34. المصدر السابق.

35. المصدر السابق.

36. المصدر السابق.

37. المصدر السابق.

38. روبرت هنتر: مبادرة الدفاع الاستراتيجي العودة إلى الاساسيات. مركز التخطيط (م. ت. ف.) شؤون استراتيجية 5/1985 عن مجلة كوارتركي شتاء 1986 مجلد 9 عدد 4.

39. د. حسن صعب: مصدر سابق،70 ص. 13.

40. المصدر السابق: ص. 13.

41. المصدر السابق: ص. 14.

42. طوني فرنسيس: مصدر سابق،74 ص. 16.

43. المصدر السابق: ص. 17.

44. بسام سخيطة: مصدر سابق.

45. د. بليماك: الماركسية اللينينية والوضع النووي في نهاية القرن العشرين، البرافدا - 4/11/1986 دراسات.